القيم والأهداف الدينية
الواردة في قصائد المدن والممالك الأندلسية

د.مريم بوخاوش

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة -

ملخص : هذا المقال إطلالة على القيم والأهداف الدينية الوارد في شعر رثاء المدن الأندلسية بعد سقوطها في يد الصليبيين ، فلقد كانت بالأندلس حضارة عربية إسلامية دامت أكثر من ثمانية قرون ، عرفت فيها أوروبا وجه الإسلام المشرق ولما ضاعت ، بكاها الشعراء في شعرهم ، وضمنوا قصائدهم قيما كثيرة ، وكان الدين محركا أساسيا في الجهاد المادي ، وامتد إلى الجوانب المعنوية .

Résumé

Cet article aborde les valeurs et les impacts religieux chantés dans la poésie élégiaque des villes andalouses après leur domination par les croisés. En Andalousie, a prospéré une civilisation arabo-musulmane qui a duré plus de huit siècles et a permis à l'Europe de découvrir une image rayonnante de l'Islam. Avec son déclin, les poètes munis de leur foi, ont voulu faire revivre les valeurs d'antan.

إن من خصائص شعر رثاء المدن والممالك الأندلسية غلبة العاطفة الدينية التي انبثقت من تعاليم الدين الإسلامي التي عاش في ظلها الشاعر الأندلسي ، وقد برزت تلك العاطفة وقويت حتى صارت صورة عكست شخصية الأندلسي الملتزمة ، وقد وجدت من خلال قراءتي لبعض تلك القصائد بروز العديد من القيم الدينية والشمائل الإسلامية التي عكست صورة الشاعر الأندلسي الذي يعد عنصرا هاما من المجتمع .

أولا : القيم الدينية المتعلقة بالأخلاق والعقيدة الإسلامية

1 ـ الصبر على البلاء :

تعلم الإنسان الأندلسي عموما والشاعر خصوصا عبر الفترة الطويلة التي عاشتها الأندلس ، والتي تميزت في أغلبها بالاضطراب حينا وعدم الاستقرار حينا آخر ، نتيجة النزاعات السياسية على السلطة، والاجتياحات الصليبية المتكررة على تلك المدن ، ولم يكن في وسع الأندلسي في خضم التجارب القاسية التي مر بها سوى الصبر ، مستمدا هذه القيمة من القرآن ، وإيمانه القوي بقوله تعالى: " الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون " ، فكان صبره سلوة له ، لأنه دائم التعلق بالله .

لقد وردت معاني الصبر في العديد من الأبيات التي اتخذ فيها الشعراء هذه القيمة شعارا " فهاهو قاضي الجماعة أبو عبد الله بن الأزرق الوادي آشي ، والذي خرج من غرناطة بعد سقوطها ، وتوجه صوب المشرق ، لم يجد إلا أن يخلق لنفسه عالما خاصا استمده من التراث الديني ، وأصبح يرى في رموزه البديل عن الوطن وهو الكهف الذي يأويه كلما عصفت فيه رياح الواقع القاسية [1] :

مشوق بخيمات الأحبة مولع تذكره (نجد) وتعزيه (لعلع)
وصبرا فإن الصبر خير غنيمة ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وإن جاء خطب فانتظر فرجا له فسوف تراه في غد عنك يرفع
وكن راجعا لله في كل حالة فليس لنا إلا إلى الله مرجع

وفي هذه الأبيات يتبين غرس الروح الإيمانية في نفسية الشاعر المؤمن بقوله تعالى : " إن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب " ، فكان ينتظر من الله الفرج ورفع الهموم والمصائب ، وأن الصبر والرجوع إلى الله لخير معين على تخطي تلك المحن .

ومما ساعد الأندلسي على الالتزام بهذه الفضيلة الإيمانية شدة تدينه و" إحساسه بالنهاية أو بنبوءة تشير إلى حتمية زوال الأندلس في يوم من الأيام فعندما حاصر الإسبان غرناطة قال أحد الشعراء متصبرا لما آلت إليه المدينة :

بالطبل في كل يوم وبالتغير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلا القراع
يا رب خيرك يرجى من هيص منه الذراع
لا تسلبني صبرا منه لقلبي ادراع [2]

2 ـ الرضا بالقضاء والقدر :

لقد كان الرضا بالقضاء والقدر من شيم الشاعر الأندلسي في رثائه للمدن الزائلة في بلاد الأندلس ، ذلك أنه سلم أمر سقوطها إلى قدرة الله عز وجل وحكمته في تصريف الأمور ، واعتبر أن نهاية الأندلس ما هي إلا حادثة إلاهية ليس للإنسان دخل فيها ، بل هي من قدر الله وقضائه ، فارتسمت بذلك هذه الشعبة من شعب وأركان الإيمان في العديد من الأبيات التي وصفت سقوط الأندلس ، وممن تذرع بفكرة القضاء والقدر ابن عميرة حيث يقول :

كذلك إلى أن صاح بالقوم صائح وإنذار بالبين المشتت منذر
وفرقهم أيدي سبا وأصابهم على غرة منهم قضاء مقدر

وفي معنى القضاء والقضاء يعبر أبو عبد الله العقيلي عن تسليم غرناطة ، وكيف تحول حالهم من النعيم إلى النقيم فجأة ، جاعلا من تسليمها أمر لا طاقة على رده فيقول :

حكم من الله حتم لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم
كنا ملوكا لنا في أرضنا دول قمنا بها تحت أفنان من النعم [3]

ومن هنا نلاحظ تجلي الروح الدينية في تفسير الشعراء لسقوط المدن السابقة ، وذلك بإرجاعهم تلك الهزائم المريرة إلى فعل الله بعباده وعليه " يرى الإنسان الأندلسي في الهزائم التي وقعت حقا إلاهيا ، وهو فعل يتعلق بهذه المشيئة ، لذلك لا مفر منه ، وبهذه الروح المتدينة والمستسلمة يستقبل الشاعر ابن عميرة سقوط مدينة بطليوس عام 62هـ 1229م بقوله :

ولم أر مثل الحق أما طريقه فأمن وأما جاره فعزيز
إذا ما آووا آوى إليه فحصنه حصين ومأواه المباح عزيز [4]

ولا يتوقف ابن عميرة عند استقباله لهذا الموت بهذه الروح المؤمنة " بالحق " بل تراه يدعو أهل بطليوس إلى تبني هذا الموقف :

فكن معه تظفر بما شئت من منى مصارفها بالصالحات يفوز

فإن توقفنا عند لفظتي (المنى والصالحات) فلعلنا نجد في معنييها ما يتصل بالحياة الأخرى ، وما سيجده الإنسان من ثواب إلاهي نتيجة لرضاه بقبول المشيئة ، كما أننا لا نجد في معنييهما الانصراف إلى استعادة المدينة أو إلحاق الهزيمة بالمغتدي ، لأن الاستسلام لقضاء اللّه وقدر شعار مرفوع قبل وقوع الكوارث أو بعده ، ولا يذهب العجب بنا بعيدا ونحن نستعرض أبيات ابن عميرة التي تفيض بالتدين كقوله:

وكأين رأينا من حوادث أقبلت فللخلق تصريح بها ورموز

تقابل بالتسليم للّه وحـده فتمضي ولم يشعر وتجور

فالأندلسي في حقيقته متدين بطبعه ، حتى إن المتفلتين في الدين قلة والتقبل والرضا ظاهرة لم يستنكرها الأندلسيون حيث ترى في بعض كتاباتهم عن المأساة بعنوان " جنة الرضا في التسليم بما قدر اللّه وقضى " استسلاما لتلك المشيئة الإلهية ، ومما ساعد على إرساء هذه القيمة الدينية إحساس الأندلسي بالنهاية ، أو بنبوءة تشير إلى حتمية زوال الأندلس في يوم من الأيام " [5] .

وما أصاب غرناطة كان أضعاف نكبات المدن الأخرى ، مما جعل سلطانها يسلم أمرها للقضاء والقدر، وأن مصيرها كان مسطرا لا مرد له فيقول :

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت وخط مسطورها في اللوح بالقلم [6]

ونستنتج من خلال تلك الأبيات تشبع الشاعر الأندلسي بالروح الدينية في تقبله لتلك النكبات ، جاعلا منها حتمية إلهية ، وهذا ما يوضح متانة العلاقة بينه وبين خالقه التي ترجمت في تلك العقيدة الراسخة بالإيمان بالقضاء والقدر ، وأن ما أصاب الأندلس أمر لا مرد له ، وأن دوام الحال من المحال ، ولا راد لقدر اللّه .

3 ـ تضرع الشاعر إلى الله بالدعاء :

من بين القيم التي لمحناها في قصائد الرثاء ضراعة الشاعر لله بالدعاء ، فإنه وإن تعددت طرق الاستغاثة وطلب العون من الملوك في عدوة المغرب وبلاد المشرق ، إلا أن ذلك لم يمنع الشاعر من طرق باب من لا يرد لطالبه دعاء ، ففضل الشكوى له ، جاعلا الخلاص على يديه ، متمسكا بعقيدته ، مؤمنا بقوله تعالى " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " ، فطلب منه النصرة والغوث ، فكان الدعاء هو الملجأ لحل هذه المعضلة لذلك " شاعت ضراعة الشعراء إلى الله تعالى ، ولجوئهم إلى المقدسات ، ولم يجدوا في تلك الأوقات العصيبة التي عانوا منها الويلات مفرا من الدعاء ، وطلب الصبر والسلوان ، وأن يكون الله عونا لهم على أعدائهم ، وهذا يفصل بالرغبة لإنقاذ ما تبقى في قول أبي عبد الله العقيلي :

حكم من الله حتم لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم

وقال أحدهم في حصار غرناطة :

بالطبل في كل يوم وبالنفير نـراع

وليس من بعد هذا وذاك إلا الـقراع

يا رب جبرك يرجو من هيض منه الذراع [7]

ومنه نلاحظ لجوء الشاعر إلى الله تعالى يستمد منه العون عسى أن يفيد ذلك في الدفاع عن مدينته المحاصرة [8].

وفي باب الدعاء والضراعة إلى الله نجد الأبيات التي قالها السهلي :

يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلهـا يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه في قول كن أمنن فإن الخير عندك أجمع

مالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع [9]

ونجد الشاعر الطليطلي المجهول يستخدم هذه الوسيلة الإيمانية أيضا للتخفيف من حدة الفاجعة فيدعو الله ملتمسا منه النصر فيقول :

ونرجو أن يتيح الله نصرة عليهم إنه نعم النصير [10]

إن الصبر على البلاء ، والإيمان بالقدر ، والتضرع إلى الله بالدعاء هي شيم المؤمن الصابر المحتسب ، والتي لاحظنا ورودها بكثرة في العديد من الأبيات الشعرية ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على انعكاس الروح الإيمانية على نفسية الشاعر ، الذي تعلق بخالقه في تفسير قضاياه الوطنية .

ثانيا : القيم الدينية المتعلقة بالمجتمع والعمران

1 ـ مكانة المرأة في شعر رثاء المدن الأندلسية

لقد اهتم الشعراء بذكر المرأة الأندلسية في أشعارهم ، ولئن كان ذكرها قد كثر في المراثي العادية إلا أن ذلك لم يمنع من إدخالها كعنصر اجتماعي هام قد مسته نكبة الأندلس ، وبهذا جعل الشاعر الأندلسي للمرأة مكانة في شعره ، وقد انبعث هذا التأثر من العاطفة الدينية التي اتصف بها الإنسان الأندلسي الغيور على عرضه .

يهدف ذكر المرأة في المراثي السياسية إلى " التركيز على صورة المرأة الضحية كما ظهرت لنا في أشعار الهزيمة ، كان أهل الأندلس يعتزون بأنهم محافظون على التقاليد العربية والإسلامية ، وانتقل هذا الحفاظ إلى الأجيال المتعاقبة ، وفي هذه البيئة التي تعتبر المرأة حرما تعد الفجيعة قاصمة من القواصم خصوصا إن وقعت أسيرة في يد الغزاة ، وفي هذا المضمار لا تتوقع من شعر الهزيمة أن تخرج أجواؤه عن تصوير هذا الإحساس " [11] .

لقد أشار الشاعر الأندلسي في مرثياته الأندلسية إلى قضية هتك أعراض النساء الأندلسيات المعارض لعقيدته الإسلامية التي تربى في حضنها الإنسان الأندلسي عبر سنين طويلة ، ونظرا للعاطفة الدينية التي تشبع بها والتي لاحظنا ظهورها في العديد من المواقف الإنسانية إثر النكبة الأندلسية ، فإنه لم يستغن عن ذكر المرأة المنكوبة في قصائده والتي عانت كما يعانيه الرجل وربما أكثر ، ومن خلال قراءتنا لقصائد الرثاء الأندلسية التمسنا تجليات هذه الحقيقة في

العديد من الأبيات الشعرية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها ما قاله الرندي في قصيدته الشهيرة مصورا فيها المرأة المفجوعة كأم فقدت أبناءها وأرملة فقدت زوجها ، وطفلة عانت من بطش المحتل وانتهاكاته ، فيقول واصفا تلك المأساة التي تهتز لها نفس كل مسلم :

يا رب أم وطفل حيل بينهمـا كما تفرق أرواح وأبـدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجـان

لمثل هذا يذوب القلب من كمـد إن كان في القلب إسلام وإيمان [12]

ومن بين الشعراء الذين تأثروا بنكبة النساء في الحروب ابن العسال الذي صور نكبة المرأة الأندلسية أبلغ تصوير منذ سقوط مدينة بربشتر ، فكانت عاطفته الدينية قد فرضت عليه غيرته على المرأة المسلمة التي ذاقت ويلات الحروب فيقول :

هتكوا بخيلهم قصور حريمها لم يبق لا جبل ولا بطحاء

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها في كل يوم غارة شعواء

كم موضع غنموه لم يرحم به طفل ولا شيخ ولا عذراء

ولكم رضيع فرقوه من أمه فله إليها ضجة وبكـاء

ولرب مولود أبوه مجـدل فوق التراب وفرشه البيداء

ومصونة في خدرها محجوبة قد أبرزوها ما لها استخفاء [13]

وقد ضرب الشاعر في قصيدته أروع الصور الفنية التي تبين تدين الإنسان العربي الإسلامي الغيور على حرماته، فكانت هذه الأبيات صورة جامعة لمعظم المصائب التي حلت بالمرأة الأندلسية المسلمة في مشاهد مروعة ، تبين مرارة الفاجعة وعظم المصيبة ، فهي في نظره ذاقت كل أصناف العذاب والحرمان ، سواء كانت زوجة وأما أو طفلة ، وقد أثرت تلك المشاهد في نفسية الشاعر ، فرثاها بتلك الأبيات مخلدا الجرائم التي ارتكبت في حق النساء ، وما ذلك إلا دليل على عدم معرفة الإنسان الأندلسي لمثل هذه المواقف في الدين الإسلامي

الحنيف الذي ينص على الرفق بالأسرى خاصة إذا كانوا من النساء ، وبهذا يبين غياب هذه القيمة الأخلاقية التي عرف بها الإسلام عند النصارى .

وفي تجسيد الغيرة الدينية على المرأة الأندلسية ، نجد شاعرا آخر يتخذ منحى مغايرا في تصوير عظم المصيبة ، وألم الفاجعة التي لحقت بديار الإسلام في الأندلس ، مبينا فساد أحوالها لما ذهبت الغيرة الدينية على حريمها ، وهي القيمة الأخلاقية التي عرفت منذ الجاهلية ، وأرسى قواعدها الإسلام، لتغيب في الأندلس لجبن رجالها الذين لم يحموا حريمهم من بطش أعدائهم فيقول :

وهان على عزيز القوم ذل وسامح في الحريم فتى غيور[14]

ويصف ابن هارون هجوم النصارى على إشبيلية وإحاقهم بها ، ويصف ما أصاب الناس من ذعر وهلع ، ويرسم صورة حزينة لأسارى المسلمين وقد غدوا مكبلين في الأصفاد ، تتبعها صورة مؤثرة لطفل رضيع اختطف من بين أحضان أمه ليواجه مصيره المحتوم ، مجسدا تلك المشاهد المروعة في صور تشبه في نظره أهوال يوم المحشر فيقول :

ويمموا حمص في جمع يضيق به ذرع القضاء فسوى الوهد والأكما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة تشكو من الذل أقداما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفا عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والها فيهم ووالهة لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما [15]

وهكذا لم يغفل الشاعر الأندلسي عن تصوير حالة المرأة المسلمة المفجوعة في بلاد الأندلس وهي أسيرة مظلومة ضعيفة ، فرض عليه ذلك غيرته العربية والإسلامية ، فجسد بذلك مكانة المرأة الأندلسية في نفسه، وأنها حملت أعباء أكثر مما حملها الرجل في تلك المصائب التي لم يشهد التاريخ الإسلامي مثلها من قبل .

كما نجد أن للموريسكيين في مرثياتهم أثر لهذه الأخلاق السامية ، فقد تأثروا للانتهاكات التي تعرضت لها المرأة الأندلسية المسلمة ، ولم يرضوا ما

أحدثه أهل الكفر في إهانتها ، فنجد في قصيدة طويلة تعبر عن تلك المأساة بعث بها الموريسكيون إلى الإمبراطور العثماني بايزيد الثاني ، والقصيدة غير معروف قائلها ، وفي تلك الأبيات التي اقتطفناها نجد تحسر الشاعر على المعاناة التي تعرضت لها المرأة في دينها من كشف لوجهها ، وهتك لعرضها ، وإكراه على أكل لحم الخنزير والميتة التي حرمها الإسلام فقال:

سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم السياط قهرا لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم لجيفة [16]

2 ـ التحسر على العمائر الدينية :

إن أهم ما يستوقفنا عند قراءتنا لقصائد رثاء المدن الأندلسية ، تحسر الشاعر فيها على العمائر الدينية من مدارس ومساجد ومصانع وقصور ومنشآت كانت تجسد الحضارة العربية الإسلامية ، فبطمسها طمس الإسلام ، وحلت النصرانية بمعالمها مكانه ، فكم من مسجد أحيل إلى كنيسة ودور للرهبان ، وكم من مآذن كان يرتفع منها صوت الأذان مدويا رافعا اسم الله في أرجاء الأندلس حول إلى أجراس للنواقيس في الكنائس ، وكم من زخارف إسلامية بدلت بصور للصليب ... وغيرها .

وأهم ما يميز شعر الرثاء في هذه القصائد غلبة تلك الروح الدينية التي استصرخت زوال الإسلام من تلك الديار التي لطالما عاشت في سماحته أزيد من ثمانية قرون ، وفي هذا الصدد يبكي أحد الشعراء بدمع غزير على ذهاب الإسلام من ديار الأندلس فيقول :

مضى الإسلام فابك دما عليه فما ينفيالجوى الدمع الغزير [17]

إن الصليبيين أرادوا باسترجاعهم الأندلس إعادة النصرانية إليها ، لذلك عملوا على طمس مساجدها ، وتحويلها إلى كنائس ، لأنهم علموا أن الإسلام لن يمح إلا بمحو الأشياء الدالة عليه وهي المساجد والمآذن، وهذا ما أثر في نفسية الشعراء " وبهذه المناسبة الأليمة ـ مناسبة تغيير معالم حضارة الإسلام صور عمر

بن المرابط شاعر بني الأحمر غرناطة وما آلت إليه الأندلس بسقوط مدنه وثغوره بحيث تحولت مساجدها إلى كنائس ، ورفع صوت نواقيسها بدل الأذان فيقول :

كم جامع فيها أعيد كنيسة فاهلك عليه أسى ولا تتجلد

القس والناقوس فوق مناره والخمر والخنزير وسط المسجد [18]

وفي تلك الأبيات جسد أجه الانتهاكات التي تعرضت لها بيوت الرحمن ، وهي أمور منافية لعقيدة الشاعر ، من تفشي الخمور والخنازير في أوساطها .

ويصور ابن الأبار ما جرى في أرض الجزيرة عامة ، وكيف طوقت المصائب بأهلها ، وتقاسم الروم عقائلها ، وعرض ما يجري في بلنسية وقرطبة خاصة مما يميت كل غيور على دينه كمدا ، وأن أرض الإسلام حل بها الشرك ، ورحل عنها الإيمان ، وحولت مساجدها إلى كنائس ، وخلفت دقات الأجراس نداء المؤذن ، ولم تعد موضعا للعلم والمدارسة ، وبكى حدائقها النضرة المورقة وأيامها الخوالي فيقول :

تقاسم الروم ، لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها مدارس للمثاني أصبحت درسا

كانت حدائق للأحداق موثقة فصوح النضر من أدواحها وعسا [19]

ولقد صورت نفس المشاهد في رثاء طليطلة التي كانت معقلا للدين يصعب مناله ، فصارت تعج بالكفر والكافرين فيقول :

طليطلة أباح الكفر فيها حماها إن ذا نبأ كبير

مساجدها كنائس أي قلب على هذا يقر ولا يطير

مضى الإسلام فابك دما عليه فما ينفي الجوى الدمع الغزير [20]

وفي هذه القصيدة نلمح كثرة الألفاظ الدالة على الروح الإيمانية العالية لدى الشاعر ، ومن تلك الألفاظ نجد (الدين ، القدير ، إيمان ، كفر ، مساجد ، الإسلام) ، وهي دلالة صادقة على حب الشاعر لتلك العمائر ، وتأثره بزوالها .

وفي قصيدة لابن هارون جمعت بين التحسر على العمائر الدينية والدنيوية ، بكى فيها الشاعر ما أصاب الأندلس في أمر دينها ودنياها ، واستحواذ أهل الشرك على كل ما يمد صلة للإسلام ، ويمزج حسرته تلك ببكائه على الحياة الرغيدة التي كان يعيشها في كنف الحكم الإسلامي المليئة باللذات والنعيم، فبضياع الدين ضاعت الدنيا ، " فيصف الشاعر ما آل إليه حال إشبيلية بعد أن دخلها النصارى ، وقد عفت معالمها ، وتغيرت محاسنها ، وأتت يد الشرك على ما شاده المسلمون من مصانع وقباب ومعاهد ، ويقابل بين صورة إشبيلية وهي في هذه الحالة من البؤس ، وبين صورتها حين كانت آمنة مطمئنة ، وتجري دموعه حارة على ضياعها ، وتثلم أركان الإسلام لسقوطها " [21] ، ونستدل على ذلك بقوله :

عفت يد الشرك ما شاد الخلائق من قصر ومن مصنع ضخم حكى إرما
أين القباب التي كانت محجبة فيها الملوك تفيض الجود والكرما
وكم بطرنيات أبقى الأسى ندبا في القلب يبعث وجدا كلما كلما
كانت معاهد للذات يغمرها فلا نراع إذا ما هاجم هجما
يا عين فابك على حمص وقل لها منك البكاء إذا ما ترسليه دما
فقد أصيبت بها الدنيا وساكنها حقا وأصبح ركن الدين قد ثلما [22]

ونلاحظ من خلال هذه الأبيات تجلي العاطفة الدينية وذلك " باستخدامها كعنصر بارز في رثائه ، ويضيف إليها بعض العناصر الأخرى كالتشخيص والمشاركة الوجدانية بين الأشياء ، فيحيل المعاني المعنوية إلى معان حسية ، ويخلع الصفات الإنسانية على الأشياء الجامدة فيتخيل الإنسان كائنا يبكي على فراق الأندلس ، ويتخيل المحاريب الجامدة ، والمنابر كائنات حزينة تبكي

وتندب ديار الإسلام التي أقفرت وخلت من أهلها ، وتحولت مساجدها إلى كنائس ترتفع فيها الصلبان ، وتدق في جنباتها النواقيس " [23].

أما الموريسكيون فقد كانت لهم عاطفة دينية صادقة تجاه العمائر الإسلامية ، فصوروا معاناتهم وهم يشاهدون ما حل ببيوت الله من تدنيس ، وحرق للمصاحف ورميها في المزابل ، وإكراه المسلمين على دخول الكنائس لتعميدهم وتعليمهم أناجيل النصارى ، وقد أخذت من تلك القصيدة الطويلة للموريسكيين هذه الأبيات التي تبين هذا الغرض :

واها على تلك المساجد سورت مزابل للكفار بعد الطهارة

واها على تلك الصوامع علقت نواقيسهم فيها نظير الشهادة

واها على تلك البلاد وحسنها لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لعباد الصليب معاقلا وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة [24]

بينت هذه الشواهد الشعرية إذن صورة الأندلس التي تنصرت ، وطمست معالمها الإسلامية، كما وضحت البعد الديني في نفسية الشاعر الأندلسي الذي غلب على رثائه تحسره لمعالم دينه ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمكن الإيمان في قلبه ، وغلبة الشيم والأخلاق الإسلامية عليه ، وتمسكه بهويته .

ثالثا : الأهداف الدينية التي يرمي إليها غرض رثاء الممالك الأندلسي :

لم تكن مرثيات الشعراء الأندلسيين مجرد قصائد بكائية على الأطلال وندب الملوك والبلدان فحسب، بل كانت إلى جانب ذلك كله مراثي تحمل أبعادا دينية تحاول من خلالها معالجة الداء الذي حل بالأندلس، والبحث عن الدواء ، للوصول إلى السبل التي من شأنها أن توقظ الهمم وتثير العزائم من أجل نصرة الإسلام والمسلمين ،وأهم تلك الأهداف ما يلي :

1 ـ النقد الاجتماعي والسياسي :

لم يكن سقوط الأندلس ـ في نظر الشعراء ـ إلا نتيجة حتمية لما أصاب مجتمعها من فساد وانحلال ، وبعد أهلها عن تعاليم الإسلام ، وكان شعر رثاء المدن الأندلسية وسيلة اتخذها الشاعر لنقد الأوضاع التي آلت إليها نتيجة السياسة غير

الرشيدة ، والانحلال الاجتماعي والخلقي ، جراء الترف والبذخ الذي عاش فيه السلاطين ، صارفين نظرهم عن سبب بقائهم ألا وهو الجهاد الإسلامي ضد أعداء الدين الذين يتربصون بهم الدوائر ، منغمسين في متاع الدنيا ولذاتها ، متباهين ببناء القصور والدور وجمع المال.

وصدق الله حين قال في كتابه العزيز : " أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعملون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " [25].

وقد صدق ابن خلدون حينما جعل الترف من أهم الأسباب المؤدية لزوال الملك* ، إذ يؤدي إلى الطبقية في المجتمع ، وتكثر النفقات ، وتضعف الحماية فيقول : " ... وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها ، فتربى أجيالهم الحادثة في غضارة العيش ، ومهاد الترف والدعة ، وينقلب خلق التوحش ، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس ، وتعود الافتراس ، وركوب البيداء ، وهداية القفر ... فتضعف حمايتهم ، ويذهب بأسهم ، وتنخفض شوكتهم ، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم " [26] ، وقد عاشت الأندلس الترف والبذخ فابتعد حكامها عن الجهاد ، فكان مآلهم الرضوخ والذل والانهزام ، وهكذا حاول شعر الرثاء توضيح الفساد السياسي والاجتماعي الذي تسلط على بلاد الأندلس " وأكثر الشعراء جرأة على النقد ابن العسال ، وإذا حاولنا استجلاء هذا اللون (النقد) من شعر الهزيمة وجدنا تعميما يتسم بالنظرة السطحية لطليعة القضايا التي كان يعيشها المجتمع " [27] ، فبين الشاعر في أحد أبياته جبن حماة الإسلام ، وخوفهم وبعدهم عن الجهاد الذي لطالما علت به راية الإسلام ، ولكنهم اليوم في ذلة من أمرهم فيقول في نقدهم :

باتت قلوب المسلمين برعبهم فحماتنا في حربهم جبناء [28]

ومن أمثلة النقمة الدينية على الحكم الأندلسي ، وتبيان فساد حاله في عصر ملوك الطوائف ما قاله ابن الجدحين :

في كل يوم غريب فيه معتبر تلقاه أو يتلقانا به خبر

أرى الملوك أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبق ولا تذر

قد كنت أنظرها والشمس طالعة لو صح للقوم في أمثالها النظر

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا [29]

ثم ينقل إلى أبيات وعظية يبين فيها صمم الحكام عن تقبل النصيحة لأنهم منشغلون في متاع الحياة الدنيا من شرب الخمور وسماع الغناء ، والتجبر في الملك فشبهه وقومه بقوم موسى لما عبدوا العجل من دون اللّه، فهو أبعد عن سماع الآيات والسور ، ولن تنفعه نصيحة الناصحين فيقول :

وكيف يشعر من في كفه قدح تحدو به مذهلات الناي والوتر

صمت مسامعه عن غير نغمته فما تمر به الآيات والسور

تلقاه كالعجل معبودا بمجلسه له خوار ولكن حشوه الخور

وحوله كل مغتر وما علموا أن الذي زخرفت دنياهم غرر [30]

وبهذا هدف الشعراء إلى توضيح السيرة السيئة للحكام والمحكومين ، وأثرها على الحياة السياسية والاجتماعية ، وسوء عواقبها في إلحاق الهزيمة بمدن الأندلس ، فنقدوا بذلك حكامها في بعدهم عن الدين، وانحراف أخلاقهم من إسراف في اللهو ، وشرب للخمر ، واستمتاع بالملذات ، وسماع للغناء ... وغيرها من الأمور التي نافت في نظرهم أصول الشريعة الإسلامية ومبادئها ، فأضاعوا حق اللّه ، وحق العباد من النصرة والمرابطة والجهاد .

2 ـ إثارة الهمم :

لقد حاول الشاعر الأندلسي في مرثياته السياسية التي بكى فيها مدن الأندلس ، أن يثير العزائم ، ويرفع الهمم ، فلم يبق أمام تلك المشاهد المروعة مكتوف الأيدي ،مكتفيا بالبكاء على الأطلال ، مستسلما لقضاء الزمن ، مكتفيا بالتحسر والتذمر ، صارفا همه عن معالجة قضية إسلامية دينية وطنية ، فجمع

عزمه على أن يثير عزائم نفوس من بقيت فيهم نخوة الرجولة ، وشهامة البطولة ، وروح الجهاد لحماية أركان الدين ، " وأمام هذا الواقع الجديد يلتفت الشاعر مستغيثا بمن وراء البحر من مسلمين وعرب ، مثيرا لحميتهم ونخوتهم ، فالمصيبة عظيمة والأمر جلل ، فلماذا هذا التهاون والتنافر ؟! ولماذا السكوت والصمت أمام الهول الذي يزحف كحيوان أسطوري يلتهم كل شيء ... ولا يبق على شيء ؟! إن الإسلام يوحدنا ، ويجمع شملنا فلماذا نقف بلا نصرة ولا إغاثة ؟! فهل مات الآباء وانطمس الخير ؟ " [13] فيقول :

يا غافلا وله في الدهر موعظة   إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه   أبعد حمص تغز المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها   وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة   كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة   كأنها في ظلال النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة   لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس   فقد سرى بحديث القوم ركبان

ثم يواصل الشاعر بعد هذه المقدمة في إثارة همم الملوك الذين انغمسوا في السلطة واللهو والغفلة عن ما أصاب إخوانهم في بلاد الأندلس ، يحاول أن يعالج المشكلة باعتماده على الألفاظ الدينية التي تبعث على الحزن ، وتؤثر في النفوس ، فيرسم صورة حزينة لسطوة الكفر والكافرين على المسلمين الضعفاء فيدعوهم في أبيات وعظية إلى درء الشقاق ، ويحثهم على الوحدة وعدم التقاطع فهم إخوان في الدين والعقيدة فيقول:

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم   وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم   أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم   أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم   واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم   عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن ان في القلب إسلام وإيمان [32]

وهكذا اتخذ الشعراء كل السبل من أجل رفع معنويات المسلمين ، وإثارة نخوتهم سواء بتذكيرهم بماضيهم العريق ، وأنهم العرب الذين لا يقفون مهزومين أمام المصائب ، أو بتصوير مشاهد الظلم والقسوة التي تعرض لها أهالي الأندلس ، ويربطها بالغيرة الدينية لعلها تحرك النفوس أو تأسر القلوب وتقطع الأكباد فتبعث قوة وعزيمة لحرب أعدائهم ، أو الاستصراخ باسم دين محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا بد على كل متبع لمنهجه أن يقوم بنصرته ، فنصرة الإسلام تعني نصرته .

ونستخلص من خلال تلك الشواهد الشعرية في رثاء الممالك الأندلسية الزائلة التي أخذنا منها أبيات فقط، الهدف النبيل الذي رسمه الشاعر ، في إثارة همم الرجال من أجل نصرة الإسلام والمستضعفين ، مستمسكا بروحه الدينية العالية المحبة لدين الإسلام ، الخائفة على حدوده من الضياع في يد أهل الشرك، ومعالمه من الطمس والتدمير ، فكانت تلك الأبيات صرخة مدوية تقرع مسامع كل لبيب ليكون عونا وناصرا لهذا الدين .

3 ـ الدعوة إلى الجهاد وتوحيد صف المسلمين :

لقد وظف الشعراء الأندلسيون مرثياتهم في الاستغاثة بإخوانهم المسلمين في عدوة المغرب لقربها من المنطقة ، وبطولة تاريخها في نصرة الأندلس ، فكان هذا الغرض بمثابة رسائل سياسية تحث على نصرة الدين والعقيدة ، وكان شعرا نابعا من قلوب تنزف ألما وحسرة ويأسا ، وقيمته ليست في أساليبه بمقدار ما هي في عاطفته المشوبة ومشاعره الصادقة وصوره الشاجبة الباكية ، وصرخاته التي تستجدي العون من ملوك المسلمين [33]، ومن نماذج هذا الهدف ما قاله أبو جعفر الوقشيالبلنسي معلقا أمله على أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي رأى فيه الشاعر أنه قادر على رد كيد الأعداء فيطردهم ويفرق جمعهم فيقول :

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فأبصر شمل المشركين طريدا

وهل بعد يقضي النصارى بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا

ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب يعيد عميد الكافرين عميدا ؟

ويلقي على إفرنجهم عبء كلكل فيتركهم فوق الصعيد هجودا ؟

ويفتك من أيدي الطغاة نواعما تبدلن من نظم الحجول قيودا ؟ [34]

وكان الجهاد أمل الأندلسيين عامة والشعراء خاصة في رد اعتبارهم فقال أحد الشعراء طالبا العون من صاحب إفريقية أبو زكريا الحفصي فقال مذكرا إياهم بمن سبقهم من الشهداء على أرضها من الفاتحين والناصرين ، وأن الأندلس ذاهبة إذا لم يتمكنوا من إعادة فتحها ، مناديا إياهم بأهل التوحيد حتى يوقظ عزيمتهم فقال :

هبوا يا معشر التوحيد قد حان الهبوب وأحرزوا علياءها

أولوا الجزيرة نصرة إن العدا تبغي على أقطارها استيلاءها

دار الجهاد فلا تفتكم ساحة سادت بها أحياؤها شهداءها

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها

أشف على طرف الحياة دماؤها فاستبق للدين الحنيف دماءها [35]

ومن الشعراء الأندلسيين من ألف القصائد الطوال في دفع المسلمين إلى الجهاد مذكرا إياهم بحمية العرب الأولى وأنهم أحق بوراثتها ، ويحملهم المسؤولية قائلا:

يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية أكبرا عن أكبر

إن الإله قد اشترى أرواحكم بيعوا ويهنكم ثواب المشتري

أنتم أحق بنصرة دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الأعصر

أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ذاك البناء بكل ألعس أسمر [36]

وهكذا كانت مرثيات الشعراء صورة صادقة تعبر عن تدينهم ، وتجسيدهم للجانب الديني في قصائدهم ، في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية ، وكان أكبر ما زاد في ألمهم هو ضياع مساجد المسلمين ، ورموز

حضارتهم في أيدي النصارى ، فجاءت تلك الأبيات كصرخة رافضة لملامح التدنيس الصليبي بكل أشكاله .

هوامش البحث:

---

[1] ـ يوسف عيد ، الشعر الأندلسي وصدى النكبات ، دار الفكر العربي ، ط : 1 ، بيروت : 2002م ، ص : 24 .

[2] ـ يوسف عيد ، المرجع السابق ، ص : 24 .

[3] ـ محمد رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، المطبعة الجديدة ، د . ط ، دمشق ، 1990م ، ص : 300 .

[4] ـ يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 23 .

[5] ـ المرجع نفسه ، ص : 23 ـ 24 .

[6] ـ المرجع نفسه ، ص : 28 .

[7] ـ رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 305 .

[8] ـ المرجع نفسه ، ص : 304 ـ 305 .

[9] ـ أحمد بن مكي ، الشعر العربي في إسبانيا وصقلية ، دار الفكر العربي ، د . ط ، القاهرة : 1999م ، ص : 155 .

[10] ـ يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 49 .

[11] المرجع نفسه ، ص : 32 ـ 33 .

[12] ـ علي دياب ، في الشعر العربي الأندلسي والمغربي ، منشورات جامعة دمشق ، د . ط ، 1996م ، ص : 312 ـ 313 .

[13] ـ رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 297 .

[14] ـ رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 298 .

[15] ـ فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، ط : 1 ، الإسكندرية ، 2007م ، ص : 180 ـ 181 .

[16] ـ أحمد عبد الرحمن السماوي ، رحلة إلى الفردوس المفقود ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دمشق ، ص : 167 ـ 168 .

[17] ـ أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية ،ص : 232 .

[18] ـ يوسف طويل ، مدخل إلى الأدب الأندلسي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، د . ط ، 1991م ، ص : 111 .

[19] ـ أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ص : 267 ، وينظر : عبد الله أنيس الطباع ، القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية ، دار ابن زيدون ، ط : 1 ، بيروت : 1986م ، ص : 232 .

[20] ـ مصطفى قيصر ، حول الأدب الأندلسي ، مؤسسة الأشرف ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ص : 86 .

[21] ـ فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي ، ص : 181 .

[22] ـ المرجع نفسه ، ص : 181 .

[23] ـ المرجع نفسه ، ص : 189 .

[24] ـ أحمد عبد الرحمن السماوي ، رحلة إلى الفردوس المفقود ، ص : 169 .

[25] ـ سورة الشعراء ، الآية : 128 ـ 135 .

[*] عالج ابن خلدون هذا السبب في مقدمته تحت عنوان : في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم . ينظر : ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق : ضياء الدين رجب شهاب الدين ، دار الفتح ، ط : 1 ، الشارقة : 1995م ، ص : 232 وما بعدها .

[26] ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 232 ـ 233 .

[27] ـ يوسف عيد ، الشعر الأندلسي ، ص : 36 .

[28] ـ إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص : 143 .

[29] ـ المرجع نفسه ، ص : 143 .

[30] ـ إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص : 144 .

[31] ـ محمد مجيد السعيد ، الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص : 324 .

[32] ـ الطاهر أحمد بن مكي ، دراسات أندلسية ، ص : 316 ـ 317 .

[33] ـ عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ص : 415 .

[34] ـ المرجع نفسه ، ص : 416 .

[35] ـ رضوان الداية ، الأدب الأندلسي والمغربي ، ص : 302 .

[36] ـ علي دياب ، في الشعر العربي الأندلسي ، ص : 308 .